الإيديولوجية بين الوهم والعلم عند كارل ماركس

بوحفص فهيمة

قسم الفلسفة –جامعة الجزائر 2

ملخص:

كثيرة هي الدراسات العربية التي تناولت فكر كارل ماركس سواء من الجانب الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو السياسي، ولكن الجانب الفلسفي من هذا الفكر يعرف نقصا ملحوظا، الأمر الذي أدى بنا إلى محاولة إثراء هذا النوع من الدراسات، وذلك من خلال المساهمة بهذا المقال الذي يحمل عنوان «مفهوم الإيديولوجية بين الوهم والعلم عند كارل ماركس». نريد أن نشير من خلال هذه الدراسة إلى الدلالات المتناقضة التي قدمها ماركس لمفهوم الإيديولوجية في كتابه الذي يحمل عنوان الإيديولوجية الألمانية. لقد بدا لنا أن تقديم مفكر بحجم ماركس لمفهوم واحد بمعان متناقضة هي مسألة تستحق الوقوف عندها قصد معرفة أسبابها والملابسات التي تحيط بها.

مقدمة:

نرمي في هذه الدراسة إلى تحليل بعض التعاريف التي قدمها ماركس لمفهوم الإيديولوجية، مركزين على إظهار التناقض الموجود بينها. وقد اعتمدنا في تحليلنا على كتاب الإيديولوجية الألمانية الذي ألفه ماركس بمعية فريدريك إنجلز*، أين تطرقا بإسهاب إلى مفهوم الإيديولوجية ومعانيها المتناقضة، غير أننا لم نتوقف عند هذا الكتاب وحسب، بل اعتمدنا على بعض الآراء التي وجدناها في مؤلفات أخرى، وذلك لتدعيم وجهة نظرنا القائمة على فكرة تناقض آراء ماركس حول مفهوم الإيديولوجية.

نستهل تحليلنا بتلخيص المعنيين المتناقضين لمفهوم الإيديولوجية.

❖ الإيديولوجية هي: الفلسفة الألمانية، الوهم، والوعي المنفصل عن الحقيقة الاجتماعية.

❖ الإيديولوجية هي: كل الأفكار التي تعكس تطور الحياة المادية الواقعية، مجموعة التمثيلات والأفكار التي تشكل الوعي، لغة الحياة الواقعية

❖ أولا: الإيديولوجية هي؛ الفلسفة الألمانية؛ الوهم؛ الوعي المنفصل عن الحقيقة الاجتماعية.

إن الفلاسفة بصفة عامة، والفلاسفة الألمان بصفة خاصة لم يعرفوا حسب ماركس أبدا حقيقة الأفكار والتمثيلات التي يستخدمونها، لقد صنعوا منذ أن وجدوا تصورات خاطئة عن أنفسهم، وعما يجب أن يكونوا، ونظموا حياتهم وعلاقاتهم وفق هذه التصورات الخاطئة، وقد عبر على ذلك بقوله: «صنع الفلاسفة منذ أن وجدوا تصورات خاطئة عن أنفسهم، وعما يجب أن يكونوا» [1].إن الفلسفة الألمانية هي الإيديولوجية-«قررنا _ماركس وإنجلز_ أن نصنف بالتعاون بيننا التعارض الذي كان بين أفكارنا وتصور الفلسفة الألمانية الإيديولوجي» [2] -، لأنها تعتقد أن الأفكار والتصورات والمفاهيم؛ الوعي بصفة عامة، هي التي تحدد العلاقات بين البشر، وأن العالم الواقعي هو نتاج هذه الأفكار. تقدم هذه الفلسفة حقيقة البشر وطبيعة العلاقات التي تربط فيما بينهم بطريقة مقلوبة، « وفي كل الإيديولوجية، يوضع الأفراد والعلاقات التي تربط بينهم بطريقة مقلوبة حيث وضع الرأس في الأسفل. [3]»

تقوم فلسفة هيجل على أن ما نعرفه عن العالم الواقعي المادي هو مضمونه الفكري ، الذي يجعل منه تحقيقا متدرجا للفكرة المطلقة، هذه الفكرة التي وجدت في مكان ما منذ الأزل، وجودا مستقلا عنه، بل هي أسبق في وجودها منه، فالطبيعة بالنسبة للتفكير تمثل ضياع ذاته، وهو يدركها كفكر مجرد خارج عنه، إن الفكر يمثل الجوهر وهو المسند والطبيعة أو الكائن فهو الظاهر وهو المسند إليه. يقول ماركس:« إن عملية التفكير، بالنسبة لهيجل ، التي يقدمها تحت اسم الفكرة، هي مبدعة الواقع، الذي لا يشكل سوى مظهر لتجليها الخارجي» [4]. يقلب هيجل في فلسفته برمتها العلاقات الواقعية التي تربط بين الفكر والكائن،

وذلك من خلال عملية التحديد أو الإسناد، حيث يرى أن الوعي هو الذي يحدد الوجود، فالفكر حسب هيجل هو المسند، والكائن هو المسند إليه، وبهذا يقلب الذاتي إلى الموضوعي والموضوعي إلى ذاتي.

ورغم الاختلاف الموجود بين فلسفة هيجل والفلسفة المادية؛ فلسفة الهجليين الشبان التي يمثلها فيورباخ، إلا أن ماركس يري أن كلا الفلسفتين تتضمنان محتوى إيديولوجيا. لقد قدم الهيجليون الشبان تفسيرا جديدا لنشأة الوعي، لكنهم اعتبروا أن لجميع منتجات الوعي وجودا مستقلا، وأن العلاقات التي تربط بين البشر هي منتجات للوعي، هذا ما يجعل ماركس يطلق عليهم اسم الإيديولوجيين. إن هذه الفلسفة الجديدة التي كانت تهدف إلى تجاوز الفلسفة الهيجلية لم تعمل حسب ماركس إلا على ترسيخها، وذلك عن طريق تحويل كل الواقع إلى مجرد مقولات مجردة، ولهذا«لم يغادر النقد الألماني ميدان الفلسفة قط، فقد انبثق بلا استثناء من أرض نظام الهيجلي، ونتج عن هذه التبعية، أن أيا من هؤلاء لم يقم بمحاولة نقد النظام الهيجلية، بالرغم من أن كل منهم يدعي أنه تجاوز الفلسفة الهيجلية، في حين راح كل واحد منهم يقوم بعزل جانبا من النظام الهيجلي. فقد عزلوا المقولات الهيجلية الخاصة مثل «الجوهر»،و«الوعي الذاتي» واستبدلوها بأسماء دنيوية مثل «النوع ، » و«الأوحد، » و«الإنسان» ، إلخ [5]».

فبوير (Baeur) لم يفعل شيئا سوى أنه استبدل تطور الروح الموضوعي الهيجلي بالوعي الكلي الذي يتجسد في النخبة، وهم الفلاسفة النقديين الخالقون للتاريخ. أما التطور التاريخي فيتم حسبه من خلال تجاوز الوعي الكلي؛ وعي النخبة، للوعي الجزئي؛ وعي الجماهير، الذي يعيق تطوره، ويتم ذلك من خلال عملية النقد. ومن المبدأ نفسه انطلق سترنر(Stirner) إذ رأى أن الأنا هو الذي يملك، ولكن ماهيته تكمن في كونه «واع بملكيته»، فالفكرة عند سترنر هي التي تحدد الأنا، إنها تمثل الموضوع، أو الجوهر، بينما الأنا فهي المحمول، وهي الظاهر.

وقد اعتبر فويرباخ الإنسان هو ذلك الفرد المعزول عن الآخرين، أما جوهره فيظهر من خلال العاطفة التي توحد بين الأنا والأنت والتي تتجلى في الحب [6]. وأن الدين، هو مجموعة التمثيلات التي تعبير عن تلك العلاقة العاطفية التي تعكس الجوهر الإنسان ؛أي طبيعته. إذا نظرنا إلى علاقة الإنسان بالوعي عند

فيورباخ، نجد أن الإنسان هو الذي يحدد الوعي، وبعبارة أخرى نقول أن الإنسان هو الموضوع والفكر هو المحمول.

لكن رغم أن فلسفة فيورباخ تقوم على أن الإنسان هو الذي يحدد الفكر، عكس الفلاسفة المثاليين والفلاسفة الهجليين الشبان مثل برونو بوير وسترنر، إلا أن خطأ فيورباخ يكمن في تحديده لجوهر هذا الإنسان، وفي كيفية نشأة المحددات. لقد نظر فيورباخ إلى الإنسان على أنه موضوع للتأمل والحدس، ولم ينظر إليه على أنه ذاتا فاعلة ونشاطا إنسانيا ملموسا، أي ممارسة اجتماعية، بل اختزله إلى الإنسان-النوع البشري، وليس الإنسان الواقعي المنخرط في علاقات إنتاج وعلاقات اجتماعية محددة، وبهذا رد الجوهر الإنساني إلى مجموعة من الأفراد الذين تؤلف بينهم روابط طبيعية. إن هذا الجوهر الإنساني الفيورباخي سجين الأنثروبولوجية الطبيعية ، التي نتج عنها افتراض الإنسان «المعزول» ، من جهة، ورفض أخذ التاريخ بعين الاعتبار من جهة أخرى، إنه (الجوهر الإنساني) هو «الوهم» الذي يخفي العلاقات الاجتماعية الفعلية. يقول ماركس في الأطروحة السادسة حول فيورباخ: «يحل فيورباخ الجوهر الديني في الجوهر الإنساني.لكن الجوهر الإنساني ليس تجريدا لاصقا في الفرد المعزول، ولكنها تشكل في الحقيقة مجموع العلاقات الاجتماعية» [7].

إن كل الأفكار التي تعتقد بأنها تتطور ذاتيا وبطريقة مستقلة عن الواقع الاجتماعي تمثل إيديولوجية، لأن الأفراد حين يطورون إنتاجهم وعلاقاته المادية، يطورون في الوقت نفسه أفكارهم. إن البشر هم المنتجون لتصوراتهم التي ترتبط ارتباطا مباشرا بدرجة تطور قواهم الإنتاجية والعلاقات التي تقوم عليها، إنها(التصورات) تعبر عن سلوك الأفراد المادي، «ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، ولكن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم» [8] .نلاحظ هنا أن ماركس يميز بين الإيديولوجية التي هي مجموعة الأفكار التي تعتقد بأنها تتطور ذاتيا(الفلسفة عامة والفلسفة الألمانية خاصة)، وبين ما يطلق عليه هنا اسم الوعي وهو الذي يمثل مجموعة الأفكار التي تعبر عن الحياة المادية.

ويقدم ماركس تعريف آخر لهذا الوعي، بحيث يطلق علية عبارة البنية الفوقية أو الصرح العلوي حيث يقول: «يشكل مجموع علاقات الإنتاج هذه

البنيان الاقتصادي للمجتمع، أي يشكل الأساس الحقيقي الذي يقوم فوقه صرح علوي قانوني وسياسي وتتمشى معه أشكال اجتماعية. فأسلوب إنتاج الحياة المادية هو شرط العملية الاجتماعية والسياسية والعقلية للحياة بوجه عام.» [9]

وعن كيفية تشكيل هذا الوعي يرى ماركس أن الوعي بادئ الأمر هو وعي بالبيئة الحسية، لكنه يتطور إلى الوعي بضرورة الارتباط مع الأفراد الآخرين ويتطور أكثر في المراحل اللاحقة من خلال ازدياد السكان، وازدياد الحاجات، وبالتالي زيادة الإنتاج. ويتطور مع هذه الأمور تقسيم العمل حيث يتم الفصل بين العمل المادي والعمل الذهني. وفي هذه المرحلة ينسى الوعي أنه نشأ من الممارسة، وينصرف إلى تكوين النظريات «الخالصة» مثل اللاهوت والفلسفة والأخلاق، الخ.

يترتب على تقسيم العمل تناقض المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية لجميع الأفراد الذين يتعاونون فيما بينهم. ويدفع هذا التناقض المصلحة الجماعية لأن تتخذ شكلا مستقلا يمثل الدولة. وفي الدولة تجد الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج النموذج المثالي الذي يعبر عن مصالحها. ولهذا فإن إدعاء الفلسفة عامة والفلسفة الألمانية أن القانون والحق يرتكزان على إرادة الأفراد المنفصلة عن القاعدة الاقتصادية ليس إلا «وهما»، [10] لأن القانون ليس إلا شكلا من الأشكال الإيديولوجية، يعبر عن علاقات ملكية وسائل الإنتاج. إن الأفكار السائدة في كل عصر هي أفكار الطبقة السائدة، ذلك لأن الطبقة التي تملك التصرف في وسائل الإنتاج المادي، هي التي تشرف في الوقت ذاته على وسائل الإنتاج الفكري، أما أفكار أولئك الذين يفتقرون إلى وسائل الإنتاج فهي تخضع من جراء ذلك إلى أفكار الطبقة السائدة.

وفي سياق تطور القوى تنشأ طبقة تتحمل جميع أعباء المجتمع، دون الاستمتاع بميزاته، وهي مطرودة من المجتمع مما يجعلها تتخذ مكانتها الأشد صراحة ضد جميع الطبقات الأخرى، إنها ، طبقة يشكلها أغلبية أعضاء المجتمع وينبثق منها "وعي" ضرورة قيام ثورة جذرية، وعي «شيوعي». [11]

إن الفلسفة الألمانية هي الإيديولوجية، هي الوهم الذي يعتقد بأن الوعي يتطور ذاتيا، ولكن المعرفة العلمية هي العلم الذي ننطلق فيه من مقدمات واقعية «إن الفلسفة الألمانية التي كانت تعتقد أن الوعي يتطور ذاتيا عبر التاريخ ليست إلا

تخمينا ووهما ، بينما العلم الواقعي فهو المعرفة التي تنطلق من المقدمات الواقعية التي نقوم من خلالها بتحليل عملية التطور العملي للبشر، والتي يمكن التحقق منها تجريبيا، إنه العلم الحقيقي» [12].

بعد هذا التمييز الذي قدمه ماركس بين مفهوم الإيديولوجية من جهة، والوعي والمعرفة العلمية (العلم الواقعي، ...) من جهة أخرى، نلاحظ أنه ينعت في الفقرات اللاحقة الوعي الذي وصفه بالمعرفة العلمية بالإيديولوجية، بحيث تصبح عبارة وعي وإيديولوجية مترادفان.

ثانيا: الإيديولوجية هي كل الأفكار التي تعكس تطور الحياة المادية الواقعية؛ مجموعة التمثيلات والأفكار التي تشكل الوعي حتى نفهم نشأة الوعي حسب ماركس يجب أن لا ننطلق من الافكار والمفاهيم، بل من مقدمات واقيعية للحياة الاجتماعية والاقتصادية، لكي نصل إلى إدراك أن الأفكار انعكاسا لهذا الواقع.«فعلى النقيض من الفلسفة الألمانية التي تنزل من السماء إلى الأرض فالصعود يتم من الأرض إلى السماء؛ بمعنى أنه لا يجب أن ننطلق مما يكونه الأفراد من أفكار وتصورات عن أنفسهم ولا مما يكونه الغير عليهم ، لكي نصل إلى الأفراد الذين هم من لحم ودم، بل يجب أن ننطلق من البشر الواقعيين، فمن خلال تطور حياتهم الواقعية تظهر الأصداء والانعكاسات الإيديولوجية التي تعبر عن هذا التطور»[13]. إن الإيديولوجية هنا تعني الأفكار التي تعبر عن تطور الحياة الواقعية المادية، وتعني في الفقرات اللاحقة الوعي، أو بتعبير أدق المعرفة العلمية.

لا يمكن للوعي الشيوعي أن يتحقق حسب ماركس بالنقد، ولكن بقلب علاقات إنتاج عن طريق ثورة البروليتاريا. وهي الثورة الاقتصادية التي تقود إلى قلب الوعي الذي يعرفه ماركس بكل أشكال الإيديولوجية. يقول ماركس: «وعند دراسة الانقلابات التي من هذا النوع يجب دائما أن نفرق بين القلب المادي الذي يحدث في أحوال الإنتاج الاقتصادية والتي يمكن تقريرها بدقة ، وبين الأشكال القانونية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية أو بكلمة واحدة الأشكال الأيديولوجية التي يدرك الناس في ظلها هذا الصراع» [14]

من خلال هذه القراءة «الوجيزة» لفكرة الإيديولوجية يتبادر لنا التساؤل التالي: هل الوعي الذي يتكلم عنه ماركس يقدم كأفكار جاهزة، أم أنه ينشأ من الإنتاج، كما تنشأ البذرة من الشجرة ؟ ألا يتدخل الإنسان بكل ما يحمل من أفكار وقناعات في تسيير هذا الوعي؟ وبما أن الوعي الذي هو خاصية إنسانية لا يمكن أن ينشأ من المادة بطريقة آلية ، فإن هذا الوعي يمثل مجموعة من الأفكار التي يقدمها المنظر أو الفيلسوف المؤهل لذلك. وإذا كان الأمر كذلك فهذا الوعي لا يختلف عن وعي الفلسفة الألمانية التي يسميها ماركس إيديولوجية، الذي هو(ماركس) جزء منها.

لقد أشار ألتوسر إلى تناقض مفاهيم الإيديولوجية عند ماركس في كتابه الإيدولوجية الألمانية قائلا :« إننا نصطدم هنا بتناقض مدهش. إذ بدا لماركس تأسيس نظرية حول الإيديولوجية» .[15] ويظهر هذا التناقض حسب ألتوسر في العبارتين التاليتين؛ أما العبارة الأولى، فهي تلك التي يقول فيها ماركس إن «الإيديولوجية المهيمنة هي إيديولوجية الطبقة المهيمنة»،أما العبارة الثانية فتتمثل في تعريفه للإيديولوجية بأنها «المعرفة» و«الجهل».

وقد رد ألتوسر سبب هذا التناقض إلى أن ماركس لا يزال(في تلك الحقبة) متعلقا بالفلسفة السابقة، التي كان يعتقد أنه حسم أمره معها.وهذا ما أدى به إلى الخلط بين مفهوم العلم ومفهوم الإيديولوجية من جهة، وحال دون وصوله في كتابه الإيديولوجية الألمانية إلى تحقيق نظرية مادية خالصة.يقول ألتوسر: «حقيقة إن كتاب الإيديولوجية الألمانية يعطي لنا ...نظرية تحليلية عن للإيديولوجية، لكنها غير ماركسية»[16]. يؤسس ألتوسر موقفه هذا معتمدا على مفهوم القطيعة الإبستيمولجية التي استعارها من باشلار[17]، هذا المفهوم الذي لا نجده عند ماركس، لكنه كامن –على حد تعبير ألتوسر– في فلسفته.

يرى ألتوسر أنه توجد قطيعة بين كتب التي كتبها في شبابه، وبين الكتب التي كتبها في مرحلة النضج. وأن ماركس نفسه يقر بوجود هذه القطيعة ويحدد موقعها، لقد وجدت في كتابه الإيديولوجية الألمانية الذي كتبه سنة 1845، والدليل على ذلك تصريح ماركس في هذا الكتاب بقوله: «لقد صفينا حسابنا مع وعينا الماضي»[18] .

تقسم هذه القطيعة الفكر الماركسي إلى مرحلتين كبيرتين، مرحلة الشباب، ومرحلة النضج. أما المرحلة الأولى، فهي مرحلة قبل سنة 1845، ويطلق ألتوسر على الكتب التي كتبها ماركس في تلك الفترة اسم «كتب ماركس الشاب»، وتتمثل هذه المؤلفات في أطروحة الدكتوراه، ومخطوطات 1844، والعائلة المقدسة، والجريدة الرينانية. أما المرحلة الثانية؛ فهي تمثل فترة ما بعد 1845، والتي تنقسم بدورها إلى مرحلتين، يطلق عليهما ألتوسر «مرحلة النضج» أو «كتب القطيعة»، وهي المرحلة التي ظهر فيها كتاب الإيديولوجية الألمانية، وكتاب فروض حول فيورباخ، وتمثل نقد ماركس للفلسفة القديمة. وبما أن هذه الكتب تمثل مرحلة انتقالية، فهي تحمل بذور الفلسفة السابقة، الأمر الذي يجعل ألتوسر يرى أنها تظهر «بشكل سلبي جزئيا، وهي جدلية بشكل كبير ونقدية»[19]. أما المرحلة التالية (1845-1857)، فهي مرحلة النضج الكامل. وهي المرحلة التي كتب فيها ماركس بيان الحزب الشيوعي، بؤس الفلسفة، والأجر السعر والربح، ... يرمي ألتوسر من خلال تقسيمه لكتب ماركس إلى فصل نمط فكري معين عن نمط فكري آخر يختلف عنه، إنه يميز بين الفكر الإيديولوجي والفكر العلمي في الفكر الماركسي* (نقصد هنا فكر ماركس)، إن هذه القطيعة تفصل بين الإيديولوجيي (السابق عن سنة 1845) والعلمي (اللاحق لسنة 1845) التام والإيجابي على حد تعبير ألتوسر. ولكي نقضي على التناقض الموجود في المعاني المختلفة لمفهوم الإيديولوجية في النظرية المادية، يجب أن نميز حسب ألتوسر بين الأنواع المختلفة لمفهوم الإيديولوجية من جهة، وبين العلم من جهة أخرى.

يحتوي مفهوم الإيديولوجية حسب ألتوسر على نوعين من الإيديولوجيات؛ الإيديولوجية عموما والإيديولوجيات الخاصة. الإيديولوجيات الخاصة هي الإيديولوجيات الدينية، والأخلاقية، والحقوقية، والسياسية التي تمثل موقف طبقة معينة. يصف ألتوسر هذه الإيديولوجيات بأنها خاصة، لأن محتواها يتغير بتغير مراحل التطور التاريخي الذي ينتج عن صراع الطبقات، ويعبر عن هذا قائلا :«...إن هدفي الإيديولوجية عامة، وليس الإيديولوجيات الخاصة، التي تعبر دائما مهما كان شكلها (الديني، والأخلاقي، والحقوقي، والسياسي) عن

مواقف الطبقات»[20]. تقوم هذه الأيديولوجيات بعكس العلاقة المتخيلة التي يؤسسها الأفراد حول علاقات شروط وجودهم الحقيقية. إن الإيديولوجيات الخاصة إذن لا تعكس الحقيقة كما هي، ولكنها تعكس أشباح الحقيقة، إنها المعرفة الوهمية. وحتي نتعرف على الطابع التخيلي لهذه الإيديولوجيات _حسب ألتوسر_، يكفي أن نفسرها كما يلي:في الإيديولوجية الدينية نجد أن الإله هو الممثل التخيلي للحاكم الواقعي، أو أن الإله هو جوهر الإنسان. هذا التحويل التخيلي لشروط الوجود هو تزييف من قبل القساوسة والطغاة من أجل الاستغلال والسيطرة على الشعب. ففي الاعتقاد بالإله _حسب ألتوسر_ يخضع الأفراد إلى لهؤلاء القساوسة.

لا تبنى الإيديولوجية على الأفكار والمفاهيم فحسب، ولكن لها وجود مادي تطبق فيه، ويعرف ألتوسر الطابع الملموس للإيديولوجيات ب«الجهاز الإيديولوجي». يظهر الجهاز الإيديولوجي للإيديولوجية الدينية في الكنيسة، إذ أن الإنسان الذي يعتقد في الإله يذهب إلى الكنيسة «إن الفرد موضوع الحديث يسلك هذه الطريقة أو تلك، أو يتبنى هذا السلوك العملي أو ذاك، وفضلا عن هذا، فهو يشارك في بعض السلوكات العملية المنظمة من قبل الجهاز الإيديولوجي»[21].

إن الإنسان الذي يعيش في التمثيلات الإيديولوجية هو مستجوب est interpellé كذات إيديولوجية تعي وبحرية أفكارها التي تحولها إلى سلوكات تطبيقية منظمة من قبل الجهاز الإيديولوجي. « إن أفكاره عبارة عن أفعال مادية مندمجة في ممارسات مادية، ومنظمة من قبل التقاليد المادية المحددة في ذاتها من قبل الجهاز الإيديولوجي المادي، الذي نشأت منه أفكار هذه «الذات» »[22].

تحتوي كل الإيديولوجيات الخاصة على طابع خاص على مدى التاريخ، إذ أن لكل إيديولوجية بنية ووظيفة ثابتتين. تتكون بنيتها في وضع الأفراد كذوات، أما وظيفتها فتظهر في أفعال هاته الذوات المدمجة في التطبيقات. «تتمثل بنية كل إيديولوجية في وضع الأفراد كذوات باسم الذات الوحيدة والمطلقة إنها المرآة التي تؤسس الإيديولوجية وتضمن وظيفتها» [3] [2].يمثل الطابع العام للإيديولوجيات ما يطلق عليه ألتوسر بالإيديولوجية عموما. ليس لهذه الإيديولوجية تاريخ، لأنها

ليست متعلقة بمرحلة تاريخية معينة. لكنها تشمل التاريخ كله، لهذا فهي «أبدية» أو هي «التاريخ كله». «الإيديولوجية عامة، التي قلت عنها بأنها...أبدية...في شكلها الثابت، في كل التاريخ»[24].

من خلال الإيديولوجيات الخاصة يعي الأفراد تطبيق تقاليدهم، فينتج عن هذه الإيديولوجية معرف reconnaissance ، وهي نوع من المعرفة المصحوبة بالجهل لهذا يطلق عليها ألتوسر اسم الجهل méconnaissance[25]، لأنها لا تقدم المعرفة العلمية التي تمثل معرفة آلية هذه المعرفة. ولكي يخرج الفرد من الإيديولوجية التي تمثل المعرفة المتخيلة التي ترتكز على الإيديولوجيات الخاصة، يجب عليه أن يعرف آلية هذا الإدراك، ويكف بالتالي عن كونه ذاتا. وحتى يعي ذلك، يجب عليه أن لا يكون داخل الإيديولوجية بل خارجها؛ أي داخل العلم والحقيقة. فالمعرفة العلمية هي إذن معرف آلية هذا الإدراك، إنها الخطاب العلمي الذي يتناول الإيديولوجية.

وفي السياق نفسه يرى إتيين باليبار[26] Etienne Balibar أن أفكار ماركس لا تخلو من التناقض الذي تفرضه حسب باليبار طبيعة التطور التاريخي للمفاهيم. مما يؤدي إلى تناقض بين قديم والجديد، بين المادي والمثالي. إن القطيعة التي تحدث بفضل الثورة بين القديم والجديد، بين المادي والمثالي، ليست إلا اللحظة التي يرتبط فيها المفاهيم المتناقضة في التاريخ. ولهذا فمن السذاجة حسب المفكر، محاولة التخلص من الجانب «السيئ» للمذهب الماركسي، ووضعه في قمامة التاريخ، تحت شعار«ماركس».

واعتبر انجلز أن كتاب الإيديولوجية الألمانية كان مخصصا لتصفية حسابهما (انجلز وماركس) مع عصبة الشباب الهيجليين، وأنهما اهتما في تلك الفترة بتوضيح مواقفهما اتجاه خصومهما أو« رفاقهما السابقون »، الأمر الذي جعلهما يهملان تفاصيل الأمور، وأصبحت أفكارهما من جراء ذلك عرضة للتفسيرات الخاطئة. يعبر إنجلز عن هذا بقوله: «إننا أنا وماركس، ملومان حتى درجة ما، ...ولم يتوفر لنا دائما الوقت أو المكان أو الفرصة كي نعطي العناصر المشتركة في التفاعل حقها »[27]، ولهذا قدم بعض التفسيرات الإضافية فيما يخص مفهوم الإيديولوجية، حيث رأى أن الإيديولوجية تكمن في جهل العلاقة الموجودة بين

الإنتاج الفكري وقاعدته الاجتماعية والاقتصادية، إنها وعي غير واعي، لذلك يَتخيل المنظرون في المجتمعات القائمة على تقسيم العمل، أن أفكارهم مستقلة عن الواقع في حين أن أصلها يوجد في القاعدة الاقتصادية.يقول إنجلز: « ...أما شروط وجود البشر المادية، هؤلاء البشر الذين تجري في أدمغتهم تلك العملية الإيديولوجية،... فهذا يظل عندهم، بالضرورة، حقيقة لا شعورية».

ولكن حينما تعي البروليتاريا حقيقة التطور الاجتماعي من خلال الاشتراكية العلمية؛ التي هي تعبيرها النظري، يتخذ الوعي طابعا آخر، لأنه يعتمد على المعرفة العلمية للقوانين الاقتصادية. إن إنجلز يقدم الإيديولوجية على أنها مفهوم العالم المادي الشيوعي أو الفلسفة المادية [8] [2] المقابل للإيديولوجية المثالية البورجوازية، وكل من مفهوم العالم المادي الشيوعي والإيديولوجية المثالية يؤسسان تاريخ الفكر الذي يتمثل جوهره في نظرية الاستغلال الرأسمالي التي اكتشفها ماركس.

الهوامـش:

* ظهر مصطلح الإيديولوجية لأول مرة عند ماركس في كتابه (**الإيديويولوجية الألمانية**) الذي ألفه مع إنجلز، ولهذا اعتمدنا في هذه الدراسة على مؤلفات إنجلز مصادر.

[1] Karl Marx, Friedrich Engels : **L'idéologie Allemande (traduction** : Renée Cartelle et Gilbert Badia, Paris, éditions : sociales, 1972) p 33.

[2] Karl Marx : **Contribution à la critique de l'économie politique** (traduction : Guillaume Fondu et Jean Quétier, France, éditions : sociales,2014)p 64.

[3] Karl Marx , Friedrich Engels : **L'idéologie Allemande**, op.cit,p40

[4] Karl Marx :**Le capital**, livre1 (traduction : Maximilien Rubel, France, éditions : Gallimard,2008) 106

[5] Karl Marx , Friedrich Engels : **L'idéologie Allemande**, op.cit,p 40

[6]George Labica : **Karl Marx ,Les thèses sur Feuerbach**, (Editions :Syllepse, Paris,2014)p.9

[7] Friedrich Engels « Thèses sur Feuerbach », dans, **Feuerbach et la fin de la philosophie classique allemande** (éditions : sociales, Paris,1966) p.43.

[8] Karl Marx *:* **Contribution à critique de l'économie politique, op.cit, p. 63**

[9] Ibid.

[10] Karl Marx, Friedrich Engels: ***L'idéologie Allemande***, op.cit, p 68.

[11]Karl Marx, Friedrich Engels: ***L'idéologie Allemande***, op.cit,p, 76

[12] Ibid , p, 52

[13] Karl Marx, Friedrich Engels: *L'idéologie Allemande*, op.cit., p.51

[14] Karl Marx**: Contribution a la critique de l'économie politique**, op.cit, p,63

[15] Louis Althusser : **Positions** (1964-1975), (éditions sociales, Paris, 1976), p.98
[16] Louis Althusser : **Positions, op.cit,p** 98
[17] Louis Althusser : **Pour Marx** (François Maspero, Paris, 1975), p24
[18] Ibid.
[19] Ibid, p 26

[*]نشير إلى أن كلمة «**الماركسي**» **marxien** تعني في الماركسية مساهمة ماركس خصوصا، وذلك تمييزا لها من مساهمة انجلز ولينينين، وستالين، إلخ....أما «**الماركسية**» **marxisme** فهي المصطلح الذي أطلقه إنجلز للدلالة على النص النظري الذي وضعه مع ماركس، والماركسيين هم المنتمين إليه...أما «**الماركسولوجي**» **marxologue** فتطلق على الباحثين والعلماء الذين كرسوا جهودهم لدراسة ماركس، وماركس فقط، فهي ليست دراسة إنجلز ولا الماركسية، ...والماركسولوجي ليس بالضرورة ماركسيا.للإطلاع أكثر على الموضوع أنظر:

George Labica, Gérard Bensussan : **Dictionnaire critique du Marxisme,** (Paris, P.U.F, 1982) pp, 714, 715.

[20] Louis Althusser : **Positions**, op.cit, p98
[21] Ibid,p106
[22]Louis Althusser : **Positions**, op.cit, p 108
[23] Ibid, p 119
[24] Ibid, p 101
[25]Ibid, p 111
[26] Etienne Balibar : **La crainte des masses** (Galilée, Paris, 1996) pp.173,174
[27] رسالة إنجلز إلى بلوخ في 21-22 أيلول 1890 في: **مراسلات ماركس انجلز** (ترجمة:فؤاد أيوب، سوريا، دار دمشق للطباعة والنشر، 1981، ص 479)

[28] Etienne Balibar :**La crainte des masses**, op.cit,p196.

قائمة المصادر والمراجع

1المصـــــادر:

1. Karl Marx, Friedrich Engels : **L'idéologie Allemande (traduction** : Renée Cartelle et Gilbert Badia, Paris, éditions : sociales, 1972)
2. Karl Marx : **Contribution à la critique de l'économie politique** (traduction : Guillaume Fondu et Jean Quétier, France, éditions : sociales, 2014)
3. Karl Marx :**Le capital**, livre1 (traduction : Maximilien Rubel, France, éditions : Gallimard,2008)
4. Friedrich Engels : **Ludwig Feuerbach et la fin de la philosophie Allemande** (éditions, sociales, Paris, 1945)
5. Friedrich Engels « Thèses sur Feuerbach », dans, **Feuerbach et la fin de la philosophie classique allemande** (éditions : sociales, Paris,1966)

المراجـــــع:

1. Etienne Balibar : **La crainte des masses** (Galilée, Paris, 1996)
2. George Labica : **Karl Marx, Les thèses sur Feuerbach**, (Editions : Syllepse, Paris,2014)
3. Louis Althusser : **Positions** (1964-1975), (éditions sociales, Paris, 1976)
4. Louis Althusser : **Pour Marx** (François Maspero, Paris, 1975)

القواميس

George Labica, Gérard Bensussan : **Dictionnaire critique du Marxisme,** (Paris, P.U.F, 1982)